Journal Of the Iraqia University (76-4) 31 July (2026)

ISSN(Print): 1813-4521 OnLine ISSN:2663-7502
Journal Of the Iraqia University
available online at
https://iasj.rdd.edu.iq/journals/journal/view/247

نظام القِنانة في وسط أوروبّا وغربها (٨٠٠-١٥٠٠)م

م.د ناطق عزيز شناوه الساعدي

الجامعة المستنصرية/ كلية التربية الأساسية/قسم التاريخ

The Serfdom system in Central and Western Europe (800-1500)AD

Dr. Natiq Aziz Shenawa Al-Saedi
Al-Mustansiriya University/ College of Basic Education - Department of History.
natiqaziz@uomustansiriyah.edu.iq

الملخص باللغة العربية:

تعرّض هذا البحث لنظام القنانة (Serfdom) في العصور الوسطى الأوروبّية خلال المُدّة الزمنية (٨٠٠–١٥٠٠م)، بوصفه أحد الأعمدة الأساسية للنظام الإقطاعي. وهدف إلى تحليل نشأة هذا النظام، وبنيته القانونية, والاجتماعية, والاقتصادية، ودوره في تشكيل المجتمع الأوروبّي الوسيط، فضلًا عن دراسة العوامل التي أدّتْ إلى تراجعه في أواخر العصور الوسطى. منْ جانب آخر, اعتمد البحث المنهج التاريخي التحليلي القائم على تتبع الظاهرة في سياقها الزمني, وربطها بالتحولات السياسية, والاقتصادية, والديموغرافية. وخَلَصَ إلى أنّ القنانة لمْ تكن نظاماً جامداً، بل ظاهرة تاريخية متغيرة اختلفتْ أشكالها وحِدّتها منْ منطقة أوروبّية إلى أخرى.**الكلمات المفتاحية: القنانة، الإقطاع، العصور الوسطى، أوروبا.**

Abstract:

This study examines the system of serfdom in medieval Europe between 800 and 1500 AD as a fundamental pillar of the feudal system. It aims to analyze the origins of serfdom, its legal, social, and economic structures, and its role in shaping medieval European society, as well as the factors that led to its gradual decline in the late Middle Ages. The research adopts a historical-analytical methodology based on tracing the phenomenon within its chronological context and linking it to political, economic, and demographic transformations. The study concludes that serfdom was not a static institution, but a dynamic historical phenomenon that varied in form and intensity across different regions of Europe.**Keywords: Serfdom, Feudalism, Middle Ages, Europe.**

المُقدمة:

يُعَدْ نظام القنانة مِنْ أهم الأنظمة الاجتماعية التي أدّتْ دوراً اقتصادياً مُميزاً في العصور الوسطى الأوروبّية, إذْ شكّل أهم الظواهر الاجتماعية والاقتصادية، إذْ ارتبط هذا النظام ارتباطاً وثيقاً بالنظام الإقطاعي, الذي تجذّرَ ونما بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية الغربية, وساد مع بداية تفكك وانهيار الإمبراطورية الكارولنجية في الغرب الأوروبّي، وأسهم في تنظيم العلاقة بين الأرض والعمل والسلطة. وقد مثّل القِنّ حلقة وسيطة بين العبد والفلاح الحُر، ارتبط بالأرض قانونياً, والتزم عُرفياً بخدمة سيده الإقطاعي مقابل الحماية وحق الانتفاع، وهو ما خلق بدوره بنية اجتماعية هرمية واضحة المعالم.تكمن أهمية البحث في تسليط الضوء على طبيعة نظام القنانة ودوره في تشكيل المجتمع الأوروبّي الوسيط، الى جانب فهم التحولات التي أدّتْ إلى تفككه وأفول نجمه مع نهاية القرن الخامس عشر الميلادي.تتمثل إشكالية البحث في أبرز التساؤلات الآتية: كيف نشأ نظام القنانة في أوروبّا العصور الوسطى؟ وما أبرز خصائصه؟ وما العوامل التي أدّتْ إلى تراجعه في نهاية القرن الخامس عشر؟ اعتمد البحث المنهج التاريخي التحليلي في دراسة نظام القنانة، منْ خلال دراسة وتحليل أبرز النصوص التاريخية المتاحة, فضلاً عن تسليط الضوء على الدراسات الحديثة, وربطها بالسياق العام للعصور الوسطى الأوروبّية. واقتصرتْ حدود البحث من الناحية الزمانية على المُدّة المُمتدة منْ عام ٨٠٠م إلى عام ١٥٠٠م، والمكانية على وسط أوروبّا وغربها, مع الإشارة المقارنة إلى أوروبّا الشرقية عند الضرورة.

أولًا: نشأة نظام القنانة في أوروبّا العصور الوسطى:

القنانة وضع اجتماعي اقتصادي لطبقة من الفلاحين في ظل الاقطاع, مثّلت حالة من الرّق أو العبودية المُعدلة, ظهرتْ أولاً في أوروبّا خلال العصور الوسطى, حيث يُجبر القِنّ على العمل في حقل سيده أو حقول ملاك الأراضي، مقابل الحماية والحق في العمل في حقله المستأجر. وشكلّتْ طبقة القنانة الطبقة الاجتماعية الأدنى من المجتمع الإقطاعي, تليهم فئة العبيد. ينظر: (Forsythe, 2009, p. 3).

١. الجذور التاريخية للقنانة:

تعود جذور نظام القنانة في أوروبّا إلى أواخر العهد الروماني، وذلك عندما بدأ نظام العبودية التقليدي بالتراجع تدريجياً نتيجة للأزمات الاقتصادية, والنقص المتزايد في الأيدي العاملة، ممّا دفع العديد منْ مُلّاك الأراضي, بصورة مباشرة أو غير مباشرة, إلى البحث عن مصادر جديدة تؤدي ذات العمل كنوع من الصيغ البديلة لضمان استمرارية الإنتاج الزراعي وديمومته (Anderson, 1974, pp. 147–148), إذْ لمْ تكن الأرض عامل الإنتاج النادر، بل العمالة؛ لذا، كانت مُلكية الفلاحين، لا مُلكية الأرض، هي التي تدرّ دخلاً لأي طبقة مزارعة غير عاملة (Domar, Aug. 28, 1969, p. 3).يُفهم ممّا تقدم بعامة, أنّ زوال العبودية أحد أبرز السمات المُميزة التي اتسم بها الغرب الأوروبّي في العصور الوسطى عن العالم القديم (Devroey, Feb., 2000, p. 3)وفي السياق ذاته, كانت المستعمرة Colony في زمن الرومان عبارة عن المُلكية الزراعية, بمعنى أدق, الاستثمار الزراعي في إطار مُلكية مُحددة. ثُمّ أخذتْ الكلمة معنى المنشأة الزراعية أو التجارية الموجودة في بلد أجنبي؛ لكن بعض اللغات احتفظتْ بالمعنى الأول، أي معنى استغلال أراض جديدة وإقامة منشآت زراعية فيها (Duruy, 1884, pp. 397–398). لذا مَثّل نظام الكولوني مرحلة انتقالية مهمة لشريحة واسعة من المجتمع الروماني القديم منذُ القرن الثامن قبل الميلاد فصاعداً, بسبب عوامل ديموغرافية (نمو سكاني، مجاعة)، واقتصادية (تجارة، مواد خام)، وسياسية, إذْ ترتب على ذلك ارتباط الفلاح بالأرض قانونياً منْ دون أنْ يُعد عبداً، وهو ما مَهّد لظهور فئة القنانة (الأقنان) في صيغتها العصروسطوية بعد انهيار السلطة المركزية الرومانية, وكان يُشار إليهم عادةً باللاتينية باسم كولوني, أي المزارعين المستأجرين, ومُفردها كولونوس Colonus (Brown, 2025, pp. 1–2), وتزامن كل ذلك مع تراجع العبودية (Devroey, Feb., 2000, p. 3). تطور نظام الكولوني في المجتمع الروماني شيئاً فشيئاً, وبحلول نهاية القرن الثالث الميلادي، واجهتْ الإمبراطورية الرومانية نقصاً حاداً في الأيدي العاملة, فاعتمد كبار مُلّاك الأراضي الرومان بشكل متزايد على الأحرار الرومان، الذين عملوا كمزارعين مستأجرين بدلًا من العبيد، لتوفير العمالة, وصار يُعرف هؤلاء المزارعون المستأجرون باسم كولوني تدريجياً وبصورة أكثر انتشاراً (Boren, 1992, p. 313)، وارتبطوا بالأرض, وتدهورتْ أوضاعهم فيما بعد، ولذلك يَعدّ بعض الباحثين هذه الحالة بداية نظام القنانة في أوروبّا العصور الوسطى (Rawat, 2005, p. 2). منْ جانب آخر, تطوّر بين القبائل الجرمانية نظام شبيه بنظام القنّية في شكل مؤسسة (إنْ صح التعبير) تُسمى كوميتاتوس Comitatus, وذلك عنْ طريق ارتباط الشبّان الشجعان بزعيم قوي يُوفر لهم الطعام والمأوى والأسلحة (Rawat, 2005, p. 2). والكوميتاتوس مصطلح تاريخي في الثقافة الجرمانية والأنكلو–ساكسونية، يُشير إلى رابطة الولاء والحماية المتبادلة بين القادة العسكريين (النبلاء) ومحاربيهم, حيث يُقاتل المحاربون مقابل الهدايا والمزايا, ويستميتون بالدفاع عن سيدهم. ينظر: (Steinberg, 1963, p. 78). وقد نصّ قسم ولاء أنجلوسكسوني في أواخر القرن السابع على ما يلي:"**والرب الذي بين يديه هذا الحرم المقدّس، سأكون صادقاً ومخلصاً لفلان** (السيد)، **وسأحب كل ما يحب, واجتنب كل ما يجتنب، وفقاً لقوانين الرب ونظام العالم. ولست صانعاً ما لا يرضيه قولاً أو فعلاً، في نية أو عمل، شرط أنْ يعاملني بما استحق، وأنْ يفعل كل شيء وفقاً لاتفاقنا حين خضعت له وسلمت لإرادته**" (Quoted in: Translations and Reprints, 1897, p. 3)وخلال منتصف القرون الوسطى، اتخذ هذا النظام شكلاً محدداً, ممّا ساعد في ترسيخ مفهوم القنانة واعتماده في مجال الزراعة وغيرها (Rawat, 2005, p. 2).

٢. مفهوم القنانة:

قبل الخوض في تعريف أو تحديد مصطلح القنانة لابد منْ معرفة آلية ترتيب طبقات المجتمع الأوروبي في العصور الوسطى (٤٧٦–١٥٠٠)م. فالمجتمع الأوروبيّ كان مُقسّماً على ثلاث طبقات على شكل هرم، واختلفتْ الحقوق والواجبات بين أفراد تلك الطبقات المتمثلة بطبقة رجال الدين، وطبقة المحاربين من النبلاء والفرسان، وطبقة الفلّاحين. مَثّلتْ كل منْ الطبقة الأولى والثانية الهيئة الحاكمة منْ وجهة النظر السياسيّة، والارستقراطيّة منْ وجهة النظر الاجتماعيّة، والفئة الثريّة منْ الوجهة الاقتصاديّة، فرجال الدين كان عليهم التعبّد واشباع حاجة الناس الروحيّة، وكانوا معفوون من الضرائب، ويتمتّعون بمستوى تعليميّ عالٍ، أمّا طبقة النبلاء، فغالبيّتهم يمضون أوقاتهم في إدارة أعمالهم وممتلكاتهم وأراضيهم، في حين مَثّلتْ طبقة الفلّاحين جموع الكادحين المغلوبين على أمرهم, المحرومين من النفوذ والثروة، إذْ توّجب عليهم العمل الشاق لسد الحاجات المادّيّة للطبقتين السابقتين. وعلى هذا الأساس أضحتْ لكلّ طبقة من هذه الطبقات مكانتها ووظيفتها المعروفة في المجتمع (Rawat, 2005, p. 2).في المرحلة المتوسطة من العصور الوسطى شكلّتْ فئة الأقنان Serfs (رقيق الأرض) القسم الأكبر منْ طبقة الفلاحين في أوروبّا, ولاسيّما الغربية منها (فرح، ٢٠٠٠،

صفحة ٧٢) تجدر الاشارة الى أنّ مفرد كلمة أقنان هو الـ "**قِنّ**", وهذه المفردة مشتقة من الكلمة الفرنسية Serf, وبالامكان تتبعها إلى الكلمة اللاتينية Servus، التي تعني "**عبد**" (Rawat, 2005, p. 2). مع ذلك, يكاد يكون من المستحيل تعريف ألقِنّ تعريفاً دقيقاً, ففي السياق الأوروبي أُستُخْدِمَتْ كلمة قِنّ Serf أو ما يُشابهها في المصادر الأجنبية – أحياناً في نفس الزمان والمكان– للإشارة إلى طَيف واسع من الفلاحين، بدءاً منْ أولئك الذين – بالكاد– يُمكن تمييز وضعهم عن وضع العبيد، وصولاً للذين كانوا يتمتعون بحُرّيّة شبه كاملة. وفي العديد من الحالات لوحظ وجود أو غياب بعض الرسوم أو الغرامات التي كان يتعين على المزارعين دفعها للسيد الإقطاعي كنوع من الاختبار الحاسم لتحديد ما إذا كان الفلاحون أقناناً منْ عدمه، إلّا أنّ هذه الالتزامات ذات السمة العبودية لمْ تكن تُفرض نادراً على الرجال المعروفين بأنّهم أحرار قانونياً (Blum, 1957, p. 808).والقِنّ فلاح يزاول الزراعة, يعيش على قطعة معينة من الأرض يمنحه إياها سيد إقطاعي يمتلك تلك الأرض، وكان القِنّ مرتبطاً بالأرض, كما كانت الأرض مرتبطة به, فهو لا يستطيع تركها إلّا بالهروب منها, أو بشراء حُرّيّته بالمال إذا وافق السيد, كما انّ السيد لا يستطيع طرده منها إلّا في حالة رفضه أداء واجباته القانونية أو ارتكاب جريمة ما (الساعدي، ٢٠٢٥، صفحة ٢٢٢).أمّا من الناحية القانونية فتُمثل القنانة، بتعريفها القانوني، أشكالاً متنوعة من الملكية المحدودة للبشر, أو المطالبات القانونية بأجزاء متفاوتة منْ ثرواتهم, أو دخلهم, أو خدماتهم؛ ومنْ ثَمّ، قياساً على العبودية، بالإمكان عدّ نظام القنانة بمثابة رأس مال مُلكية، أي مُلكية أصل مُدرّ للدخل. وبمزيد من القياس على العبودية، أكّد مؤرخو الاقتصاد أنّ "**القنانة مؤسسة اقتصادية مربِحة, منْ حيث العوائد الخاصة, لأصحاب الأقنان**" (Kahan, 1973, p. 86).بعامّة, لمْ يكن القِنّ عبداً بالمعنى القانوني الكامل، إذْ لمْ يكن يُباع منفصلًا عن الأرض، لكنّه لمْ يتمتع بالحُرّيّة الشخصية، إذْ خضع لمنظومة من الالتزامات العرفية والقانونية التي قيّدتْ حركته وحقوقه المدنية (Vinogradoff, 1892, pp. 41–42)غالباً ما كان يُعتقد باستمرار أنّ القِنّ شخص مُرتبِط بالأرض، وهذا مفهوم غير كافٍ، بل مغلوط في كثير من الأحيان وفي أماكن مختلفة, لأنّ حالة ووضع القِنّ عرضة للتغيير بمرور الزمن على أنْ لا يتعارض ذلك بصورة كبيرة مع وضعه القانوني, إذْ كانت أعمق وأكمل أشكال القِنانة تلك التي كان فيها السيد, في الغالب, قادراً على تحريك فلاحيه كيفما شاء، ناقلاً إياهم منْ حيازة إلى أُخرى، مُحولاً إياهم إلى مزارعين بلا أرض, أو خدم منازل، أو حتّى باعة, أو يهبهم أو يقامر بهم منْ دون أرض. منْ جهة أخرى، مرّتْ على الأقنان حقب زمنية أنصفتْهم الى حدٍ ما, عندما مُنِحَ القِنّ الحق في مغادرة حيازته، بعد إخطار سيده، ليصبح حينها رجلاً حُرّاً (Blum, 1957, p. 808) منْ جانب آخر, ليس من الدقّة تعريف القِنّ بأنّه شخص مرتبط بجسد سيده، لأنّ هذا الوضع أيضاً لمْ يكن مألوفاً إلّا في أزمنة وأماكن معينة, ففي فرنسا، على سبيل المثال، "**كان القِنّ مرتبطاً بسيده برباط وصِف بأنّه رباط لا ينفصم، يكاد يكون جسدياً، لا علاقة له بأي حيازة قد يمتلكها القِنّ**". وهكذا، إذا استولى رجل حُرّ على حيازة كان يشغلها قِنّ، فإنه يبقى حراً؛ باختصار، كان هناك تمييز واضح بين الوضع الشخصي وحيازة الأرض. ثمّ، بدءاً من القرن الثالث عشر، بدأتْ "**وصمة القنانة**" تُلصق بالأرض بدلاً من الإنسان، بحيث أصبح الفلاح الحُرّ الذي يتمكن من الحصول, بأي شكلٍ من الأشكال, على مسكن مُعترف به كأرض خاضعة [لسيدٍ ما] يُعدّ قِنّاً طالما بقي في تلك الأرض, وبذلك أصبحتْ الحيازة هي التي تحدد الوضع, ويبدو أنّ هذا التطور خلال هذه الحقبة الزمنية قد تعدى فرنسا ليشمل انكلترا أيضاً (Vinogradoff, 1892, pp. 151–152, 165)اللافتْ للنظر أنّ هناك سمة مشتركة بين جميع أشكال القنانة الأوروبية، أينما وُجدتْ, وحيثما حلّتْ, إذْ عُدّ الفلاح غير حُرّ إذا كان مُقيداً بإرادة سيده, ومرتبطاً بروابط مؤسسية وليست تعاقدية, هذه الروابط تكون مُهينة ومُعيقة اجتماعياً؛ من الناحية العملية يعني ذلك أنّ السيد يتمتع بسلطة قانونية مطلقة على فلاحيه، مُستبعداً الدولة استبعاداً تاماً أو شبه تام، بحيث كانت الحقوق الوحيدة للفلاحين، عملياً، هي تلك التي يسمح بها السيد (Semevskii, 1888, pp. 5–6)ومنْ تبعات ذلك الوضع تقييد حركة الفلاحين, فلمْ يكن بمقدورهم الذهاب والإياب كما يشاؤون منْ دون إذن سيدهم، بالمقابل, مُنح السيد امكانية فرض أيّة التزامات يريدها. من البديهي, وانْ لمْ يكن بصورة شاملة، أنْ تُحدد تلك الالتزامات، وتُعرّف بدقّة، وفقاً للعرف، مع ذلك كان بإمكان السيد زيادتها أو إنقاصها، أو تغيير طبيعتها، أو الأمر بتنفيذها بأي ترتيب يريده, ومع ذلك، لمْ تكن سلطة السيد على أقنانه كبيرة لدرجة تجريدهم من شخصيتهم القانونية, وهنا يكمن الفرق بين القِنّ والعبد, حتّى عندما انحدر وضع القِنّ إلى درجةٍ تسمح ببيعه وشرائه بدون أرض، ظلّ يتمتع ببعض الحقوق الفردية، وإنْ كانت مُقيّدة بشدّة. أمّا العبد، فمهما بلغتْ ثروته – وقد شهدتْ فترات، مثل روسيا في القرن السابع عشر، تمتع فيها بعض العبيد على الأقل بمزايا اجتماعية واقتصادية أكبر من الأقنان– فلمْ يكن في نظر القانون شخصاً بل مجرد متاع لسيده (Semevskii, 1888, pp. 5–6)عاشَ القِنّ بدون حماية القانون, إذْ كان يُطرد من الأرض ويُبدّل بغيره حسب مشيئة سيده, الذي يحق له فعل ما يشاء به عدا قتله أو تشويهه, كما فُرِضَ على القِنّ حلق شعر رأسه كنوع من وسم العبودية, ولتمييزه عن الأحرار, لأنّ ترك الشعر سمة تُعرف بها طبقة النبلاء والفلاحين الأحرار (Brooks, 1922, pp. 82–84). وليس بمقدور القِنّ ادعاء حق المُلكية الشخصية, لأنّ كل ما يمتلكه يُعدُّ مُلكاً لسيده الاقطاعي, وعلى هذا الأساس بإمكاننا القول "**إنّ القِنّ لمْ يكن عبداً ولا حُرّاً, وإنّما كان وسطاً**

بين هذا وذاك", إذْ لمْ يكن يتمتع إلّا بالقليل من الحقوق المدنية تجاه سيده, ولكنّه, خارج نطاق علاقته بسيده, يُعدُّ في نظر الدولة والكنيسة حُرّاً, لهُ ما للأحرار منْ حقوق وإرادة وحُرّيّة في عقد أي اتفاق مع غيره, وبناءً على ذلك وردتْ مؤخراً تسميات عدّة للأقنان منها: "**أنصاف العبيد**", و"**أنصاف الأحرار**", و"**رقيق الأرض**" (فرح، ٢٠٠٠، صفحة ٧٣).

ثانياً: الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للأقنان:

١. القنانة والنظام الاقطاعي:

هنالك العديد من الأمور التي تداخلتْ في دواعي نشأة القنانة في أوروبا العصور الوسطى, تمثل أبرزها في النظام الاقطاعي, إذْ ارتبطتْ القنانة ارتباطاً وثيقاً بذلك النظام الذي قسّم بموجبه الأراضي على ضياع Manors يملكها نبلاء أو مؤسسات كنسية، ونُظِّمتْ بدوره العلاقات بين السيد والقِنّ على أساس التبعية والحماية المتبادلة (Reynolds, 1994, pp. 112–113). وقد سُمي هذا النظام بالنظام السنيوري System Seignorial, الذي يمثل نظام الضيعة ويحدد الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للفلاحين (الخطيب، ٢٠٠٩، صفحة ٦٦).

مثّلتْ الضيعة Manor وحدة نظام الملكية الزراعية, وكانت في الغالب عبارة عن مزرعة تضم منزلاً أو دار استراحة السيد الاقطاعي, وتألف الاقطاع منْ ضيع عدّة عُرفتْ باسم الدومين, الذي مثّل المصدر الحقيقي لقوّة السيد الاقطاعي ونفوذه, والضيعة أشبه بمملكة أو عالم صغير يحكمه سيد يتمتع بسلطة شبه مطلقة, وتمتلك الضيعة جميع مقومات الاكتفاء الذاتي, بحيث يشبع انتاجها السيد والمسودين جميعاً. فالضيعة العصروسطوية كانت تكفي نفسها بنفسها الى حد كبير, ما عدا بعض الكماليات كالتوابل التي يمكن لصاحب الضيعة استيرادها إذا رغب باستخدامها (الخطيب، ٢٠٠٩، الصفحات ٦٨–٦٩)حقيقة الأمر, إنّ النظام الضيعي نفسه قديم، ترجع جذوره إلى أصول رومانية وجرمانية بل ربّما سلتية, ولكن الجديد أنّ أوروبّا العصور الوسطى اتخذتْ منْ هذا النظام أساساً للحياة الاقتصادية في الوقت الذي تلاشتْ فيه أهمية المدن وضعفتْ التجارة. فإذا كان الرومان قد عرفوا نظام الضيع، فمعرفتهم هذه كانت على أساس اعتماد هذه الضيع على التبادل التجاري مع المدن الزاهرة التي اشتهرتْ بها الحضارة الرومانية، إذْ تُصدّر الضيع إلى المدن إنتاجها الزراعي وتستورد منها إنتاجها الصناعي, أمّا في أوروبّا العصور الوسطى، فقد أصبحتْ الضيعة وحدة اقتصادية قائمة بذاتها لا تربطها روابط تجارية بغيرها، وعلى أهلها الاعتماد على سواعدهم في كل ما يحتاجون إليه (الخطيب، ٢٠٠٩، صفحة ٦٨)الى جانب هذه التغيرات التي طرأتْ على النظام الضيعي بدأ عصر الإقطاع, بشكله المعروف, في أوروبّا, مع بداية تفكك وانهيار الإمبراطورية الكارولنجية Carolingian Empire (٨٠٠–٨٨٨)م عقب وفاة شارلمان Charlemagne (٧٦٨–٨١٤)م, ثمّ ابنه لويس التقي Louis the Pious (٨١٤–٨٤٠)م، إذْ استقلّ كل نبيل (كونت أو ماركيز أو بارون .... الخ)[1] بما تحت يده منْ أراضٍ عدَّها مُلكاً خالصاً له يتصرف فيه منْ دون الرجوع للسلطة المركزية في عاصمة الإمبراطورية. هذا منْ ناحية, ومنْ ناحيةٍ أُخرى, وجد الناس الذين كانوا يعيشون داخل هذه الأراضي أنفسهم في حاجة إلى التمركز أو الالتفاف حول شخص أو سلطة عُليا تقدم لهم الحماية ليتمكنوا منْ مزاولة حياتهم اليومية وأعمالهم بأمان" (Rawat, 2005, p. 3)بطبيعة الحال سعى الناس, في أوروبّا, جاهدين لتحقيق السلام, والنظام, والأمن؛ فمنذُ أنْ اجتاح الهون, والقوط, والوندال, والمجريّون, أوروبّا بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية, أصبحتْ الحياة غير مستقرة وغير آمنة, لاسيّما عندما بُثّ الرعب في قلوب الناس بعامة, وارتجفوا خوفاً عند سماعهم بقدوم تلك القبائل. وفي ظل تلك الظروف تمثلتْ حاجة الناس في السلام والأمن. وبالمثل، شهد موت شارلمان– كما اشرنا– تصاعداً في الفوضى والاضطراب. لذا، أصبح نظام جديد قائم على الحماية والخدمة ضرورياً. في هذا الوضع، إذا وجد أحد النبلاء ممّنْ يملكون أراضي شاسعة, وكان لديه قصره القوي بما يكفي لتوفير الحماية له ولرجاله, وكان بإمكان مثل هذا الرجل حماية الآخرين إذا اختاروا، التفّ الفلاحون حوله؛ لكنه لنْ يتحمل هذه المسؤولية بدون مقابل. لذلك، قدّم الفلاح الحُرّ نفسه لحماية سيده عن طريق منحه قطعة أرض له إلى الأبد، ووعده بخدمته. وبهذه الطريقة، أصبح الفلاح الحُرّ قِنّاً، وانتشرت القنانة تدريجياً في أوروبّا" (Rawat, 2005, pp. 3–4)وعلى هذا الأساس تضافر عاملان مُهمان تمثلا بافتقار الناس إلى الحماية وتطلع السيد أو الحاكم المحلي إلى الاستقلال, وبذلك بدأ عصر الإقطاع الذي تمثل في تقديم الخدمات للحاكم منْ جانب الشعب نظير أنْ يقدم لهم الحاكم الحماية. ممّا تقدم فالإقطاع أو النظام الإقطاعي "**هو نظام سياسي واجتماعي واقتصادي أوجدته الحاجة وفرضته الظروف في غرب أوروبا، وكان هذا النظام يتناسب وحاجات الناس في تلك العصور**" (الشعراوي، ١٩٧٠، الصفحات ٤–١٢)ضمّتْ الضيعة الواحدة أنواعاً مختلفة من الأفراد على درجات متفاوتة من الحُرّيّة، فاختلفتْ أعمالهم والواجبات المفروضة عليهم باختلاف درجاتهم, باستثناء فئة العبيد الذين قد يكونون بالضيعة، ممّنْ اقتصر عملهم على الخدمة المنزلية داخل منزل السيد الإقطاعي منْ دون أنْ تكون لهم وظيفة خارجية، حتّى أخذوا بالانقراض من المجتمع الأوروبي منذُ وقت مبكر يرجع إلى أواخر القرن الثاني عشر، إذْ وجد داخل الضيعة أحيانا بعض الملاك الأحرار الذين يمتلكون مساحات من الأرض مقابل دفع رسوم معينة، ولهم حُرّيّة بيعها أو شرائها, وأهم ما اتصف به

هؤلاء المزارعون الأحرار حقهم في حمل السلاح, وفي تزويج بناتهم, أو إلحاق أبنائهم بسلك الكهنوت منْ دون التقيد بموافقة السيد الإقطاعي, فضلاً عن حُرّيّتهم في بيع مواشيهم وفقاً لما تقتضيه مصالحهم الخاصة (الخطيب، ٢٠٠٩، صفحة ٧٠)واقع الأمر, أنّ معظم فلاحي الضيعة كانوا من الأقنان المرتبطين بالأرض، الذين يولد الواحد منهم ليجد أباه مرتبطاً بأرض معينة فيرتبط هو الآخر بالأرض نفسها ولا يستطيع تركها، مُتحملاً ما يُفرض عليه منْ أعباء ومهمات شاقة. ومهما اختلفتْ أصول هؤلاء الأقنان فإنّ تفاوت أنصبتهم من الحرّيّة كان ضئيلاً لأنّهم كانوا جميعاً مُقيدين بقيود شديدة تجعلهم غير أحرار. ولكن يلاحظ أنّ القِنّ لمْ يكن عبداً بمعنى الكلمة، لأنّ سيده لمْ يكن يستطيع التصرف به بالبيع مثلاً, أو أذيته جسمانياً بدون ذنب أو محاكمته, وعلى هذا نستطيع القول أنّ القِنّ لمْ يكن عبداً ولا حُرّاً– مثلما ذكرنا سابقاً، وإنّما كان بين هذا وذاك, فهو لا يتمتع إلّا بالقليل من الحقوق المدنية منْ قبل سيده، ولكنّه خارج نطاق علاقته بسيده يعد في نظر الدولة والكنيسة حُرّاً، له ما للأحرار منْ حقوق وإرادة وحُرّيّة في عقد أي اتفاق مع غيره. ثمّ إنّ مجرد الظن بأنّ مصالح الغالبية منْ أقنان الضيعة كانت تُهدر في سبيل مصلحة السيد الإقطاعي صاحب الضيعة يُعد أمراً مغلوطاً, إذْ في الواقع أُلفتْ الضيعة منْ مجتمع ريفي له حكومة ذاتية وإدارة إقطاعية تنظمه وتسيطر عليه لتحقيق الخير لجميع أهاليه وتنظيم أسباب العيش لهم، فضلاً عن تزويد السيد الإقطاعي بما يطمع فيه من أرباح (Rawat, 2005, p. 3)عاشتْ فئة الفلاحين الأحرار في ظل ظروف اقتصادية, واجتماعية قاسية, دفعتْ معظم هؤلاء الى التحول لفئة الأقنان, وقد أوجزَ لنا أحد المختصين بتاريخ العصور الوسطى بعض الأسباب التي آلت بالفلاحين الأحرار الى النزول لمرتبة القنية, جاء في أبرزها:

أ. في حالة طلب السيد الإقطاعي من الفلاح الحُر الاشتراك في الحرب فيرفض الأخير, يعاقبه سيده بإنزاله الى مرتبة القِنّ.

ب.بيع الفلاح الحُر نفسه للسيد, فكثيراً ما كان يذهب فلاح حُر فقير الى أحد السادة الأغنياء ويقول له أعطني مقدار كذا من المال أو الأرض, فأصبح رَجُلك وأكون رهينة لك.

ت.كان العديد من الفلاحين الأحرار يفضلون الانضواء في عالم القنية بغية الدفاع عن أنفسهم ضد أي طاغية أو عدو محلي, وذلك بتسليم أنفسهم الى رجل قوي يحميهم.

ث.كثيراً ما كان العديد من الفلاحين الأحرار يهبون أرضهم وأنفسهم لكنيسة أو دير ويصبحون أقناناً تابعين لتلك الهيئة الدينية (فرح، ٢٠٠٠، صفحة ٧٢).كان تحول الرجل الحُرّ الى قِنّ التزاماً يشمل جميع جوانب حياة القِنّ, فالأطفال المولودون لأقنان يرثون مكانتهم، ويعدّون مولودين أقناناً, وبتحملهم واجبات القنانة، كان الناس يربطون أنفسهم وذريتهم (Reprints, 1897, p. 3).

٢. الحياة الاجتماعية والاقتصادية للأقنان:

أُلِفَ نظام القنانة منْ ثلاث ركائز أساسية تمثلتْ بالأقنان، ومُلاك الأراضي، والكنيسة. وكما أشرنا سلفاً, يحصل القِنّ على الحماية من السيد، وكان عليه مقابل ذلك, العمل لمدّة ثلاثة أيام على الأقل في أرض السيد، ودفع جزء من عائدات أرضه للسيد، ودفع ثمن طحن الحبوب وخبزها في مطحنة السيد وفرنه على التوالي, وهذا يعني أنّ حالة القِنّ أضحتْ كحالة العبد لا يُحرر أبداً (Rawat, 2005, p. 3).

انحدر الأقنان منْ أربعة مصادر:

أ. أبناء الأقنان يصبحون أقناناً ويرتبطون بأرض والدهم (Reprints, 1897, p. 3).

ب.العبيد الذين حررهم أسيادهم, هؤلاء يصبحون أقناناً ويستلمون أرضاً يعملون فيها.

ت.الفلاحون الأحرار ممّنْ تدهورتْ أحوالهم المادية, هؤلاء يبيعون حُرّيّتهم وأرضهم لسيد إقطاعي مقابل مبلغ من المال, أو مقابل حمايتهم.

ث.الأحرار منْ خارج فئة الفلاحين قد ينزلون الى مرتبة القنيّة, بسبب ارتكاب جريمة ما, أو عجز عن توفير سبل وأسباب العيش لأنفسهم (فرح، ٢٠٠٠، صفحة ٧٣).

يُفهم من ذلك انّ أحد أسباب الزيادة في نسبة الأقنان مُرتبط بما كان يحصل منْ نقصان في فئة العبيد منْ جهة, وفئة الرجال الأحرار منْ جهة ثانية (محمد، ٢٠٢٣، صفحة ١٠)بعامة, عاش الأقنان في مجتمعات قروية شبه مغلقة أو مغلقة نسبياً، ودارتْ حياتهم اليومية حول الزراعة, والكنيسة التي أدّت بدورها دوراً مركزياً مهماً في تنظيم العلاقات الاجتماعية, فضلاً عن تكريس القيم الأخلاقية السائدة (Duby, 1968, p. 89)فرضتْ طبيعة نظام الضيعة روح التعاون على فلاحيها، ولاسيّما أيام الحراثة والحصاد، لأنّ الفلاح الواحد لمْ تكن لديه الإمكانات المادية التي تمكنه من العمل بمفرده طوال مواسم الزراعة, فإذا فُرِض أنه امتلك محراثاً كان لا يمتلك الثيران اللازمة لجرّه، لذلك كانت تربط جميع ثيران الضيعة – قرابة العشرين أو أكثر– بالمحراث لتعمل سوياً في حرث الأرض، الأمر الذي تطلّب من الفلاحين تعاوناً واشتراكاً في حراثة جميع أراضيهم. وهذا التعاون نفسه كان مطلوباً أيضاً في وقت الحصاد ، لأنّ الحنطة والشعير والشوفان وغيرها يستوجب تخزينها بسرعة عند تمام نضجها لتجنب تساقط

حباتها وضياعها, لذلك كان الحصاد موسمَ نشاط كبيراً، إذْ يشترك في العمل بالحقول جميع مَنْ بالضيعة منْ رجال ونساء وأطفال، حتّى يتم تخزين الحبوب في أسرع وقت ممكن. ويلاحظ أنّ هذا النظام الذي سارتْ عليه الضيعة الأوروبّية في العصور الوسطى كان تعاونياً لا شيوعياً، لأنّه بعد تعاون جميع فلاحي الضيعة في إعداد الأرض وزرعها وجمع المحصول يُقسم هذا المحصول في النهاية بنسبة الحصص التي في حيازة كل أسرة منْ أُسر الضيعة (الخطيب، ٢٠٠٩، الصفحات ٧١-٧٢)اعتمدتْ فعالية هذا الترتيب المؤسسي إلى حدٍ كبير على درجة السيطرة التي يمارسها المُلّاك الشرعيون للأرض, وهذه نقطة محورية, فقد كان الاستخدام الأمثل لنظام القنانة كمؤسسة، منْ حيث حصّة الإيرادات أو حجم الخدمات، يعتمد على مدى احتكار مُلكية الأرض، لذلك فمُلكية الأقنان كانت منْ لدن فئة محددة ومحدودة. وهكذا، فبينما يمكن لنظام القنانة، كمؤسسة لاكتساب الإيرادات عن طريق منح حقوق الملكية للبشر، أنْ يعمل في ظروف معينة بدون احتكار، إلّا أنّ فعاليته تزداد بشكل كبير بالتواطؤ أو الاحتكار الصريح. وقد أدى القضاء على المنافسة بين مُلّاك الأقنان على الأقنان إلى توسيع نطاق حق الملكية ليشمل مجالات إضافية من الأنشطة الاقتصادية وغير الاقتصادية للأقنان (Kahan, 1973, p. 90)أمّا فيما يتعلق بالاحتكارات فكانت عديدة ومتنوعة، ولا بد للفلاحين منْ قبولها صاغرين, فالسيد صاحب الضيعة هو الذي يمتلك طاحونة وفرناً وم عصرة (Rawat, 2005, p. 3) ، بل أحياناً حتّى البئر الوحيدة في الضيعة. وفي هذه الحالة يُلزم كل قِنّ بإحضار غلّته من الحبوب إلى طاحونة السيد لطحنها, ثمّ يحمل دقيقه إلى فرن السيد لخبزه، وكذلك الحال بالنسبة لكرومه, وزيتونه, وتفاحه, يذهب به إلى معصرة السيد لعصرها, كل ذلك مقابل أجر معين يقدمه القِنّ لسيده إمّا نقداً أو عيناً. وإذا امتلك فلاح ما طاحونة يدوية (الرَّحَى), أو غير ذلك من المُعدّات التي منْ حق السيد الإقطاعي وحده أنْ يحتكرها, عُدَّ ذلك جُرماً خطيراً يحاكم عليه (فرح، ٢٠٠٠، صفحة ٧٥) (الخطيب، ٢٠٠٩، صفحة ٧٣)تعرّض الأقنان للعديد من الأعباء التي أثقلتْ كاهلهم, وذلك منْ جرّاء تنوّع التزاماتهم الاقتصادية, منها السخرة في أراضي السيد, والضرائب ودفع الاتاوات العينية من المحاصيل, فضلاً عن الضرائب الكنسية، وهو ما شكّل بدوره عبئاً ثقيلاً على الفلاحين (Duby, 1968, p. 90). كما أسهم نظام القنانة في تحقيق قدر من الاستقرار الزراعي المحلي، لكنّه, بالمقابل, حدّ من الابتكار والإنتاجية, وتتمثّل علّة ذلك في غياب الحوافز الفردية, واعتماد الاقتصاد بدرجة كبيرة على الاكتفاء الذاتي (Duby, The Early Growth of the European Economy , 1974, pp. 56-57).وفيما يتعلق بالسخرة فتمثلتْ بتلك الأعمال التي يفرضها السيد على أقنانه, وتقسم على ثلاثة أنواع: السخرة الأسبوعية, حيث توّجب على القِنّ العمل ثلاثة أيام في أرض السيد الخاصة, كما يعمل ثلاثة أيام في أرضه التي استلمها من السيد الاقطاعي. أمّا يوم الأحد فكان العمل فيه محرّماً بأمر من السلطات الدينية العُليا. والسخرة الفصلية, التي تفرض في مواسم جمع المحصول وحصاده, وكانت هذه بحد ذاتها مصدر متاعب للفلاحين لأنّها تُفرض عليهم في الوقت الذي يكونون فيه أحوج الى ذلك الجهد والوقت لبذله في جمع محاصيلهم الخاصة. والسخرة العامة, ومنها شق الطرق وحفر الخنادق وانشاء الجسور (عاشور، ١٩٨٦، صفحة ٢٩١) أمّا الضرائب, فكانت أولاها ضريبة الرأس, التي يتعين على كل قِنّ دفعها سنوياً الى السيد (صاحب الضيعة)، أمّا نقداً أو عيناً, وكانت هذه الضريبة بسيطة غير مُكلفة, الهدف منها أنْ تظل رمزاً للعبودية, وضريبة العُشر, التي تُقرّر على انتاج الأرض والماشية والأسماك المصطادة, ومقدارها (تقريباً) عُشر ذلك الانتاج, فضلاً عن مجموعة متفرقة من الضرائب مثل ضريبة الولاية والجبن التي يدفعها القِنّ مقابل السماح له برعي ماشيته في مراعي الضيعة, وضريبة الأسماك التي يدفعها مقابل السماح له بالصيد في البركة أو النهر (الخطيب، ٢٠٠٩، صفحة ٧٣)في السياق ذاته, لمْ يسلم القِنّ منْ دفع رسم معين في حالات الزواج, ففي القرن الحادي عشر فرض الاقطاعيون مبلغاً من المال على القِنّ عند تزويج احدى بناته, وإذا تزوج القِنّ منْ خارج أملاك سيده (الدومين) توّجب عليه أنْ يدفع رسماً معيناً. وحصل الاقطاعيون, بوصفهم نواباً للملك, على حق ممارسة السلطة القضائية على الاقنان الذين يعملون في أملاكهم, وعادتْ الحقوق القضائية بفوائد جمّة على السادة الاقطاعيين, لأنّهم كانوا يفرضون غرامات مالية على المذنبين, ويستولون على ممتلكات الأشخاص المحكومين بالاعدام. وفرض السادة أيضا ضريبة ميراث على أبناء القِنّ المتوفى الذين يرثون الانتفاع بالأرض, وفي الغالب كانت ضريبة الميراث فرساً أو ثوراً قوياً. وكان منْ حق السيد أنْ يرث جزءاً منْ تركة قِنّه المتوفى, أو التركة كلها (فرح، ٢٠٠٠، الصفحات ٧٥-٧٦). اختلفتْ مراسم تسليم الأرض للقِنّ عن مراسم تسليم الأرض للتابع الحُر منْ طبقة النبلاء, فقد كان القِنّ يستلم الأرض منْ ناطور السيد الاقطاعي بعد تأدية صيغة معينة منْ يمين الاخلاص والتبعية, وبعد أنْ يتم تحرير محضر بتسليم الأرض, يودع في خزانة محكمة السيد, كان ناطور السيد يُشير بعكازه أو عصاه بدخول الأرض (فرح، ٢٠٠٠، الصفحات ٧٥-٧٦) ممّا سبق يبدو أنّ القِنّ كان يحيا حياة شاقة مليئة بالمتاعب والآلام في ظل نظام السيادة أو النظام السنيوري, صحيح إنّ العائلة التي تمتعتْ بنحو ثلاثين دونماً, وما يتبعها منْ حصة في الغابة والمرعى, تمكنتْ في السنوات العادية أنْ تحيا حياة مستريحة، لكن الفجوة بينها وبين الجوع لمْ تكن واسعة، بحيث كان مألوفاً أنْ يتضور الجميع جوعاً في سنيّ الشدّة. وكان طعام القِنّ الأساسي مؤلّفاً من الخبز الأسمر, والبيض, وبعض الخضر العادية كاللفت والفول والبازلاء, وربما أسعدته الظروف في إحدى

المناسبات بأكل دجاجة أو غيرها من الطيور، ولكنّه كان لا يستطيع أنْ يتذوق اللحم والسمك إلا نادراً. أمّا شرابه فكان النبيذ أو الجعة, ومع ذلك يبدو أنّ القِنّ ظل قانعاً راضياً بحياته, ولاسيّما أنّ هذه الحياة, مع ما فيها منْ ألوان البؤس, لمْ تخلُ منْ بعض ضروب الترويح والتنفيس؛ فإذا حضر إلى الضيعة أحد الحواة The Snake Charmers أو المهرّجين The Clowns (وهؤلاء شخصيات ترفيهية استعراضية) استبقاه صاحبها, ودعا الفلاحين للمشاهدة والاستماع الى هؤلاء في باحة منزل السيد صاحب الضيعة للمشاهدة والترويح عن أنفسهم, وهنا يُلاحظ أنّ السيد الإقطاعي لمْ يختلف وقتذاك عن القِنّ في عقليته اختلافاً واضحاً, إذْ كان ما يدخل السرور إلى قلب أحدهما كفيلاً بإدخال السرور إلى قلب الآخر (زيادة، ١٩٧١، الصفحات ٣٢-٣٣)وفيما يتعلق بزوجات الأقنان وبناتهم, فإذا ما قورنَّ بزوجات السادة الاقطاعيين وبناتهم اللاتي تمتعن بقسط من الراحة والتسلية، فإن زوجات الأقنان وبناتهم حُرِمن منْ هذه النعمة، لأنّ قسوة الحياة أجبرتهن على الكفاح والعمل إلى جانب الرجل منْ أجل الحصول على لقمة العيش. لقد قامتْ المرأة الفلاحة بإعداد الطعام, والشراب, والملبس, إلى جانب تربية أولادها داخل المنزل، كما أسهمتْ خارج المنزل في بناء الأكواخ, وقطع الأعشاب, وجمع المحصول وتخزينه. كذلك رحلتْ بعض الفلاحات منْ غير المتزوجات, والأرامل, والعوانس, إلى المدن المجاورة، فاشتغلن في صناعة الجعة والنبيذ، أو غزل الأصواف ونسجها. وكانت هنالك بعض النساء اللواتي أقبلن على الحياة الديرية التي هيأت لهُن قسطاً من الثقافة والعمل المفيد (عاشور، ١٩٨٦، صفحة ٢٩٥).

ثالثاً: أسباب انهيار نظام القنانة وزواله في وسط أوروبّا وغربها:

منْ علامات أفول نظام القنانة في وسط أوروبّا وغربها، بدء السلطة المركزية بالتدخل بين السيد والقِنّ، مُقوّضةً بذلك صلاحيات السيد القانونية والإدارية، واضعةً معايير للالتزامات التي يُمكنه فرضها على فلاحيه, خلافاً لما كان معمولاً به في بدايات عصر الإقطاع. مقابل ذلك، أدّى انسحاب الحاكم من التدخل في علاقة السيد بالفلاح إلى خضوع الفلاحين الأحرار لنظام القنانة, كما حصل في أجزاء منْ شرق أوروبّا (Semevskii, 1888, p. 6), إذْ تزامن تراجع نظام القنانة في أوروبّا الغربية، في الحقبة الزمنية نفسها التي ترسّخ فيها شرقي نهر إلبه (Blum, 1957, Elbe p. 807), الذي يُعد من أهم أنهار أوروبّا الوسطى، يبلغ طوله (١,٠٩٤) كم, ينبع من جبال جمهورية التشيك, ويخترق التشيك وألمانيا, ويصب في بحر الشمال بطول كلي ١,٠٩٤ كم (صالح، ١٩٩٢، صفحة ١١٠). وهذه مفارقة بارزة في تاريخ أوروبّا الحديث المبكر (Blum, 1957, p. 807).هنالك حقيقة لا يمكن تجاهلها, إنّ القِنّ بدا في العديد من الحالات عاجزاً أمام استبداد سيده الاقطاعي، مع ذلك استطاع أنْ يضمن لنفسه في ظل هذا النظام نوعاً من الحماية, ولاسيّما ضد الخطر الخارجي. بعبارة أخرى لمْ يكن هذا النظام جحيماً لا يطاق فقَد فيه القِنّ كل أمل في الخلاص، لأنّه على الرغم منْ شدته وقسوته ترك بعض الثغرات والمخارج أمام القِنّ ليحيا حياة أفضل (الخطيب، ٢٠٠٩، صفحة ٧٥). وهنا تجدر الاشارة الى توافر امكانية لتحرير الأقنان, رغم كل القيود التي كبّلتْهم, إذْ تنوعتْ سُبل تحريرهم, ونذكر منها بعض الحالات:

١. إذا دفع القِنّ مبلغاً مُعيناً من المال لسيده الاقطاعي, بشرط موافقة السيد على ذلك, شريطة أنْ يدفع المال طرف ثالث, لأنّ ما يملكه القِنّ منْ مال يُعد مُلكاً للسيد.

٢. إذا دخل القِنّ في سلك الرهبنة؛ ولكن منذ أواسط القرن الثاني عشر اشتُرطتْ موافقة السيد على دخول القِنّ في سلك الرهبنة.

٣. إذا هرب القِنّ الى المدينة ومكث فيها نحو سنة كاملة ويوماً واحداً منْ دون أنْ يطالب به سيده.

٤. وفي حالات استثنائية، قد يُحرر السيد أحد الأقنان مكافأةً له على خدمته الشخصية المخلصة (Bailey, 2014, pp. 63-64) .

وفي هذا السياق, أكّد أحد الباحثين أنّ ميثاق التحرر لمْ يُمنح بسهولة أو كثيراً، لأنّ التحرير القانوني للأقنان مثّل خسارة رسمية لأصل قابل للاستغلال، ومنْ ثَمّ انخفاضاً في قاعدة موارد الضيعة. وعادةً ما كان السيد يسعى للحصول على تعويض مالي عن التنازل الدائم عن ممتلكاته من المزارعين، ولذلك كان يتم شراء ميثاق التحرير عادةً. وكان مبلغ يُعادل ثُلث قيمة أراضي وممتلكات القِنّ يُعد أساساً مناسباً للتحرير (Bailey, 2014, p. 63).على سبيل المثال لا الحصر, كلّفت عملية تحرير القِنّ في القرن الخامس عشر في انكلترا, ما بين عشرة جنيهات وعشرون جنيهاً إسترلينياً، على الرغم من أن رسوماً قدرها عشرة جنيهات إسترلينية ظهرتْ بشكل متكرر في السجلات بأماكن أخرى (Bailey, 2014, p. 63). وتجدر الاشارة بأنّه عند معادلة هذه المبالغ في القوّة الشرائية بمدينة لندن لعام ٢٠١٦م, فانّ العشرين جنيهاً استرلينياً تُقدر بنحو أكثر منْ (١٧,٠٠٠) جنيه إسترليني (Ogilvie, 2014, p. 55)أخذ نظام الأقنان بالانهيار تدريجياً نتيجة للعديد من التطورات الاقتصادية والاجتماعية التي عصفتْ بأوروبّا منذ أواخر القرن الحادي عشر, وبدأتْ هذه التطورات في الظهور قبيل الحروب الصليبية (١٠٩٦-١٢٩١)م؛ ولكن هذه الحروب عجّلتْ بها نحو الأمام، حتّى أنّ الحملة الصليبية الأولى وحدها فتحت الباب أمام عشرة آلاف قِنّ تركوا أراضيهم التي ارتبط بها آباؤهم وأجدادهم بحجّة الاشتراك في هذه الحرب المقدسة؛ ثمّ جاءتْ مسألة نشأة المدن وتطورها، ممّا فتح باباً جديداً أمام الأقنان لهجرة الأرض والنزوح إلى المدن. ولمْ يلبث أنْ

اكتشف أصحاب الضيع أنّ نظام العبيد والأقنان أضحى غير اقتصادي، وأنّه من الأوفر لهم والأجدى استخدام عمال مأجورين من الأحرار في فلاحة أراضيهم, لأنّ هؤلاء الأخيرين يعملون بعزيمة أقوى وروح أسمى، ومنْ ثَمّ يأتون بإنتاج أوفر, وهكذا أخذ كبار المُلّاك يُحررون أقنانهم بالجملة وفقاً لشروط خاصة تصدر بها براءة من الملك، وكان أنْ ظهرتْ في القرن الثاني عشر حركة كبرى لإحياء الأرض البور وتطهيرها واستصلاحها نشأتْ عنها زيادة الإنتاج والدخل، وفي الوقت نفسه تحسين أحوال المزارعين, ذلك أنّ كبار الأمراء والسادة اضطروا إلى عرض شروط مُغرية على الفلاحين ليقوموا بإحياء هذه الأراضي وفلاحتها, ممّا ساعد على هدم النظم القديمة تدريجياً (عاشور، ١٩٨٦، صفحة ٢٩٦)منْ جانب آخر, أسهم توسع الأنشطة التجارية, وازدياد الحاجة لاستخدام النقود, في تحويل الالتزامات الإقطاعية من السُخرة إلى الإيجارات النقدية، الأمر الذي سرّع في عملية تفكك نظام القنانة وأفوله تدريجياً (Cipolla, 1994, pp. 89–90). إذْ أدى النشاط التجاري في القرن الثاني عشر, وما ترتب عليه من التوسع في استخدام النقود، تدريجياً الى تمكين الفلاحين منْ دفع ما عليهم منْ التزامات نقداً لا عيناً، وإنْ ظلّتْ بعض أسماء الضرائب والمكوس محتفظة بأسمائها القديمة (عاشور، ١٩٨٦، صفحة ٧٦). وإذا ظل نظام الأقنان قائماً في جميع أنحاء أوروبّا في القرن الثالث عشر، فقد كان آخذاً حينئذ في الاحتضار السريع (Cipolla, 1994, p. 91)أدى انتشار وباء الطاعون, المعروف باسم الموت الأسود Black Death, في منتصف القرن الرابع عشر, الذي اجتاح أوروبّا بين عامي (١٣٤٧ و١٣٥٢)م وتسبب في موت ما لا يقل عن ثلث سكان القارّة, إلى انخفاض حاد في عدد سكان أوروبّا، ممّا عزز منْ موقع الفلاح التفاوضي, وأضعف قبضة السيد الاقطاعي (Herlihy, 1997, Trethewey, 1974, p. 37)(pp. 28–31 اندلعتْ انتفاضات وثورات فلاحيّة عدّة في أوروبّا, تحديداً في الأجزاء الغربية منها، كان منْ أبرزها انتفاضة الفلاحين في إنكلترا عام ١٣٨١م، التي عبّرتْ بدورها عن تنامي الوعي الاجتماعي للفلاحين, والاحتجاج على الأعباء الإقطاعية التي أثقلتْ كاهل الفلاح (هناء خضير أحمد، ٢٠٢٠). وقد جوبهتْ جميعها بالقمع من قبل النبلاء والحكومات المركزية, وكان مطلب الثوار في جميع هذه الثورات والانتفاضات واحداً في جوهره, وهو سحب ألقاب السيادة, ومنحوا أنفسهم صكوك التحرر التي تحررهم من الالتزامات الثقيلة, وهذه الثورات إنْ دلّتْ على شيء فإنّها دلّتْ على خطورة المساوئ الموجودة في الريف, وانعدام التوازن الذي حدث في المجتمع نتيجة للتغيرات الاقتصادية (يحيى، ١٩٨١، صفحة ١٥٣). أمّا في القرن الخامس عشر, فكان الدافع الإقطاعي لتحرير الأقنان مالياً بعامة، لأنّ موجة منْ عمليات التحرير وفّرتْ وسيلة لجمع سيولة نقدية جاهزة، إمّا لتخفيف الصعوبات المالية أو لتغطية النفقات الاستثنائية. في حالة الطوارئ المالية، كان الأقنان يمثلون "**إمكانية تحقيق مكاسب رأسمالية كبيرة للسيد**", على سبيل المثال، في عام ١٤١٥م، منح دوق نورفولك الحق لتابعيه من الاقطاعيين بتحرير الأقنان, لمنْ يرغبون بذلك, في جميع أنحاء ممتلكاته, لجمع أموال إضافية لمشاركته في حملة أجينكورت Agincourt عام ١٤١٥م. بعد عام ١٤٥٠م، انتهج عدد قليل منْ ملاك الأراضي، سياسة عدوانية لتعقب الأقنان الهاربين, بهدف الحصول على مكاسب مالية مستقبلية منْ خلال تحريرهم, وبذلك بدتْ معظم عمليات التحرير مدفوعة بدوافع مالية (Bailey, 2014, p. 64)استمر ذلك الوضع حتّى اختفتْ القنانة تدريجياً في أوروبّا الغربية، منذ القرن السادس عشر, بينما استمرتْ في أوروبّا الشرقية لقرون أطول (Trethewey, 1974, pp. 41–42) .

الخاتمة:

يُظهر البحث أنّ نظام القنانة, الذي حلّ محل العبيد, كان نتاجاً لظروف تاريخية, واقتصادية, خاصة بأوروبّا العصور الوسطى، إذْ أسهم بشكل فاعل في تشكيل بنيتها الاجتماعية والاقتصادية. إذْ بدأ هذا النظام يتشكل مع تفكك الإمبراطورية الكارولنجية, وتأصل في النظام الإقطاعي لتوفير العمالة الزراعية.ازدهر نظام القنانة, بعامة من القرن التاسع حتّى منتصف القرن الرابع عشر، إذْ أضحى مؤسسة اقتصادية اجتماعية مربحة للأفراد منْ طبقتَي النبلاء والاقطاعيين, غير أنّ التحولات الديموغرافية, والاقتصادية, والفكرية, بين القرنين الرابع عشر والخامس عشر, أدّتْ إلى تراجعه التدريجي، مُمهدة بذلك الطريق لظهور المجتمع الأوروبّي الحديث.بدأ نظام القنانة بالانحسار تدريجياً في الغرب بعد الطاعون الأسود, بسبب نقص العمال، ممّا زاد منْ قوّة الفلاحين التفاوضية. فضلاً عنْ أنّ عمليات تحرير الأقنان منْ جانب أسيادهم في القرن الخامس عشر, وفّرتْ وسيلة ناجحة لجمع الأموال، فجاءتْ لتخفيف الأعباء والصعوبات المالية أو لتغطية النفقات الحربية وغيرها, إذْ حققتْ مسألة تحرير الأقنان مكاسب مالية كبيرة للسيد الاقطاعي, كونه رتَّب على القِنّ دفع مبالغ كبيرة مقابل نيل حريته, وعوّض السادة الاقطاعيون عن النقص الحاصل نتيجة لتحرير أقنانهم بالعمالة ذات الأجور اليومية.

مراجع:

1. Arcadius Kahan .(١٩٧٣) .*Notes on Serfdom in Western and Eastern Europe, The Journal of Economic History* .(المجلد ٣٣)Cambridge: Cambridge University Press.

2. Beatrice Allard Brooks .(١٩٢٢) .*The Babylonian Practice of Marking Slaves* .(المجلد ٤٢) Journal of the American Oriental Society, American Oriental Society.
3. Carlo M. Cipolla .(١٩٩٤) .*Before the Industrial Revolution* .London: Routledge.
4. David Herlihy .(١٩٩٧) .*The Black Death and the Transformation of the West* .Harvard University Press: Cambridge.
5. David P. Forsythe .(٢٠٠٩) .*Encyclopedia of Human Rights* (المجلد Vol. 1 .(Oxford: University Press, Oxford.
6. Evsey D. Domar) .Aug. 28, 1969 .(*The Causes of Slavery: A hypothesis* (المجلد N.42 .(Economic History Association.
7. Georges Duby .(١٩٦٨) .*Rural Economy and Country Life in the Medieval West, trans*) .Cynthia Postan ، (المترجمونColumbia: University of South Carolina Press.
8. Georges Duby .(١٩٧٤) .*The Early Growth of the European Economy* . Cornell University Press: Ithaca- New York.
9. Henry Charles Boren .(١٩٩٢) .*Roman Society: A Social, Economic, and Cultural History* .California :D.C. Heath.
10. Herbert Norris .(١٩٩٩) .*Medieval Costume and Fashion* .New York.
11. Jean-Pierre Devroey) .Feb., 2000 .(*Men and Women in Early Medieval Serfdom: The Ninth-Century North Frankish Evidence, Past & Present* .Oxford University Press on behalf of The Past and Present Society No. 166.
12. Jerome Blum .(١٩٥٧) .*The Rise of Serfdom in Eastern Europe, The American Historical Review* .(المجلد ٦٢) Oxford: Oxford University Press.
13. Mark Bailey .(٢٠١٤) .*The Decline of Serfdom in Late Medieval England: From Bondage to Freedom* . Woodbridge: The Boydell Press.
14. Paul Vinogradoff .(١٨٩٢) .*Villainage in England* .Oxford :Clarendon Press.
15. Perry Anderson .(١٩٧٤) .*Passages from Antiquity to Feudalism* . London.
16. Peter Brown .(٢٠٢٥) .*The Rise of Western Christendom, Oxford, 1996, pp. 97 ;٩٨–Shivchand Singh Rawat, Comparative Study f Serfdom in Europe and India* .(المجلد ٧) Issue: International Journal for Multidisciplinary Research (IJFMR.(
17. Quoted in .(١٨٩٧) .*Translations and Reprints from the Original Soureces of European History* (المجلد IV .(New York: University of Pennsylvania press.
18. Richard Trethewey .(١٩٧٤) .*The Establishment of Serfdom in Eastern Europe and Russia, The American Economist* .(المجلد ١٨) Sage Publications.
19. S. H. Steinberg .(١٩٦٣) .*A New Dictionary of British History* .London.
20. Samuel Rawson Gardiner .(١٨٩٠) .*A Student's History Of England From The Earliest Times To 1885* .London : Green And Co.
21. Sheilagh Ogilvie .(٢٠١٤) .*The Economics of Guilds* .(المجلد ٢٨) The Journal of Economic.
22. Shivchand Singh Rawat .(٢٠٠٥) .*Comparative Study f Serfdom in Europe and India* .(المجلد ٧) Issue: International Journal for Multidisciplinary Research (IJFMR.(
23. Susan Reynolds .(١٩٩٤) .*Fiefs and Vassals* .Oxford: Oxford University Press.
24. Translations and Reprints .(١٨٩٧) .*from the Original Soureces of European History* (المجلد IV .(New York: University of Pennsylvania press.
25. V. I. Semevskii .(١٨٨٨) .*The Peasant problem in Russia in the 18th and first half of the 19th centuries* . Petersburg: St. Petersburg.
26. Victor Duruy .(١٨٨٤) .*History of Rome and the Roman People: From Its Origin to the Establishment of the Christian Empire* .(المجلد ١) London: Trench & Co.

٢٧.احمد ابراهيم الشعراوي. (١٩٧٠). الاقطاع وأوربا في العصور الوسطى. القاهرة: المطبعة العالمية.

٢٨.جلال يحيى. (١٩٨١). تاريخ أوروبا في العصور الحديثة. الاسكندرية: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٢٩.سعيد عبد الفتاح عاشور. (١٩٨٦). أوربا العصور الوسطى: النهضات والحضارة والنظم. القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية.

٣٠.صادق صالح. (١٩٩٢). الأطلس العام. بغداد: مطبعة الرصافي.

٣١.علي حماد محمد. (٢٠٢٣). طبقات المجتمع الاوروبي في ظل النظام الاقطاعي خلال العصور الوسطى (المجلد ٦٩). بنغازي: المجلة الليبية العالمية, جامعة بنغازي– كلية التربية.

٣٢.محمد الخطيب. (٢٠٠٩). حضارة أوروبّا في العصور الوسطى (المجلد ٢). دمشق: دار علاء الدين.

٣٣.محمد مصطفى زيادة. (١٩٧١). الإقطاع والعصور الوسطى بغرب أوروبّا. القاهرة: دار المعارف بمصر.

٣٤.ناطق عزيز شناوة الساعدي. (٢٠١٧). مستعمرة فرجينيا ودورها السياسي والاقتصادي ١٦٠٧–١٧٧٦. دمشق: دار أمل الجديدة.

٣٥.ناطق عزيز شناوه الساعدي. (٢٠٢٥). النقابات: أصولها وامتدادها في أوروبّا العصور الوسطى (٤٧٦–١٥٠٠)م (المجلد ٦). مجلة اكليل للدراسات الانسانية.

٣٦.نعيم فرح. (٢٠٠٠). الحضارة الأوربيّة في العصور الوسطى (المجلد ٢). دمشق: منشورات جامعة دمشق.

٣٧.هناء خضير أحمد. (٢٠٢٠). انتفاضة الفلاحين في انكلترا عام ١٣٨١م. تكريت: كلية التربية, جامعة سامراء.

List of References

1. Ahmed Ibrahim El-Shaarawy. (1970). Feudalism and Europe in the Middle Ages. Cairo: Al-Alamiyya Press.
2. Ali Hammad Muhammad. (2023). Social Classes in Europe under the Feudal System during the Middle Ages (Vol. 69). Benghazi: Libyan International Journal, University of Benghazi - Faculty of Education.
3. Hanaa Khudair Ahmed. (2020). The Peasants' Uprising in England in 1381 AD. Tikrit: College of Education, Samarra University.
4. Jalal Yahya. (1981). A History of Europe in Modern Times. Alexandria: The Egyptian General Book Organization.
5. Muhammad al-Khatib. (2009). European Civilization in the Middle Ages (Vol. 2). Damascus: Dar Alaa al-Din.
6. Muhammad Mustafa Ziyada. (1971). Feudalism and the Middle Ages in Western Europe. Cairo: Dar al-Maaref, Egypt.
7. Naeem Farah. (2000). European Civilization in the Middle Ages (Vol. 2). Damascus: Damascus University Publications.
8. Natiq Aziz Shanawa al-Saadi. (2017). The Virginia Colony and its Political and Economic Role 1607-1776. Damascus: Dar Amal al-Jadeeda.
9. Natiq Aziz Shanawa al-Saadi. (2025). Guilds: Their Origins and Extension in Medieval Europe (476-1500 CE) (Vol. 6). Ikleel Journal for Humanistic Studies.
10. Sadiq Saleh. (1992). The General Atlas. Baghdad: Al-Rasafi Press.
11. Saeed Abdel-Fattah Ashour. (1986). Medieval Europe: Renaissances, Civilization, and Systems. Cairo: Anglo-Egyptian Library.

هوامش البحث

(١) ألقاب تشريفية متعارف عليها في أوروبّا العصور الوسطى, وما بعدها, الغرض منها ترتيب طبقة النبلاء وفقاً لسلّم المراتب, ففي انكلترا مثلاً, تحديداً بعد الفتح النورماندي, كان ترتيب الألقاب على النحو الآتي: دوق Duke, ماركيز Marquis, إيرل Earl, فايكونت Viscount, وبارون Baron. ينظر: (Norris, 1999, p. 290) (الساعدي ن.، ٢٠١٧، صفحة ٨٤)